تائهة في محطات الدنى

بقلم : سكينة قدور*
الجزائر

أعطيني الكيس الكبير، فلعل النوم يا أمي يغلب منك الجفون . وتنامين، وتذوقين مناماً، ربما كان ثقيلاً ... ويضيع الكيس يا أمي، وتضيعين ... هي أيدي السوء يا أمي على كل الدروب، تسرق الحق جهاراً، بأساليب الذئاب الوادعة .

أعطيني الكيس الكبير، لأخفيه بعيداً بين أغوار الفؤاد، فلعل الريح يا أمي تهب، من صفير القاطرة، ومن الأيدي الظّماء،ولعل العمر يا أمي يضيع، بضياع المحفظة.. ولعل الناس قد شموا عبير الكيس يا أمي فجاؤوا لاهثين .. عجّلوا الخطو سراعاً خلف تلك الرائحة، وجروا خلف فراسات الأنوف الجائعة .

هم يملؤون المكان، انظري ذاك البريق، انظري ذاك اللهيب في العيون الجائعة، انظري ذاك الحريق يجرح الأحداق . ربما ذابت خلاياه، ومدّت ظفرها نحو ذاك الكيس، هو عمر من جهاد، أتضحين به، أتمدين خباياه هدايا للجياع؟! أعطيني الكيس الكبير فزمان النهب لا يوجد عذراً للشيوخ، وزمان النهب لا يصنع عذراً للنيام البسطاء من أمثالك يا أمي وأمثال أبي . أعطيني الكيس الكبير، فلعل النظرات الوقحة تعلم أنك حبلى بألف من وريقات الذهب، تعرف في عينيك الذابلتين الخائفتين أنك حبلى بأوراق الحياة .

مدت الكف الهزيل نحو الكيس، أخرجت كنز الشباب بأيادٍ راجفة، هي أيدي الشيب والعمر الطويل، هو ذخر الجد والكد المرير .

أو تدرين بأني ما رأيت أطهر منك قديماً ؟! أو تدرين بأني ما عرفت مثلك في الطهر؟! ما وجدت صِنْوَكِ في الصفو يا أمي على مر سنوات عمري، ما رأيت مثلك في الحشمة أو ثوب الوقار ... فتعالي أدفع اليوم لزاماً ثمن ذاك الحياء، وتعالي نشرب اليوم رحيق الطهر فيك يا أمي، وأدفع من جيبي ثمن ذاك الصفاء ... أو ليكن من جيبك يا أمي، ومن جيبي فخر واعتزاز وكلام، إذ رضعت الجود منك، فأعطيت الثناء، وجف الجيب من كل إعطاء .

هذه الحلوى قَوْلَبُوها، شكلوها، جعلوها منحة لا تصلح إلا للشيوخ العاجزين، جربيها، ربما لم تطعميها منذ أن كنت صبية . اشربي الشاي فقد لا تشربينه بعد ساعات قصار، اشربي كأساً، وكأساً من رحيق الكيس !

قد تجوعين ولا تلقين قوتاً بعد ساعات قليلة . وأنا أعرف أن الدمع فيك مثل أنهار الشتاء . اهدئي الآن ونامي، ريثما يأتي دوي القاطرة، عندها أوقظك في همس ورفق، عندها يوقظك الصفير وصوت الراحلين، وصوت اللاهثين خلف الكنز والعمر وأطياف البريق .

* جامعة الأمير عبدالقادر - قسنطينة - فازت بالجائزة الثانية في مسابقة القصة القصيرة التي أجرتها الرابطة.

أبصرت في نومها حلماً، أبصرت في حلمها كابوساً ثقيلاً يطرزه السواد، رأت الشيطان في ثوب البشر، يلبس بدلة زرقاء، زرقة البحر، ولباساً تحتها أسود، ورأت سمرته العذبة والقد الجميل، ورأته يطعن قلبها المرهق، والمثقل بأصناف الهموم، يرميه بسهام من ذهب، ونسيمات ابتسام عذب ذرّاها على جرح الفؤاد . فبكت ضحكاً، غرقت في بحر الدموع الباسمات الضاحكات، ذا الذي فرش لها الأرض بأنواع العذاب ونفاق الكلمات المفرغات من كل حنين . بينما جدّت يداها تقلع السهم الرشيق، أو تخبئه، أو تزيد السهم غوراً وكتماً للعذاب، وجحوداً بالفؤاد ... ملأ الدنيا صفيرا ونداء، يوقظ النوّم والغفّل كي يبدأ الرحيل !! نهضت ذعراً ورؤياها المخيفة تملأ كل مكان، ما رأت في عمرها المثقل شيطاناً !! واليوم تراه .. أي نحس، أي كابوس ثقيل هز قلب الأم فارتجت يداها ؟

تاهت العينان منها في فلول الذاهبين، القادمين، الراكضين، الصاعدين، النازلين، الساحبين، الحاملين أكياس المتاع . ومتاع العمر منها بين أحضان فتاها . وفتاها الآن ضاع .

ذعر الخطو لديها في زحام الناس . صاعد يدفع ساقيها الضعيفتين إلى الأمام، ونزول يحبسون الخطوات الهزل منها، كي يرجعوها، فتعود حيث كانت، ربما أخرجها الحشد إلى باب الزمان، ربما تقذف الساعة بالابن الشقي، فصفير القطار ينبئ بالرحيل .

أرسلت بصرها بعيداً في زحام اللاهثين.. رنت العينان . ربما تلقاه أو تلقى دليلاً قبل أن يمشي القطار .

يا بني، أرأيت عندما كنا جلوساً ذلك الشاب الذي كان أمامك، ذلك الباسم الثغر البهي، أرأيته هو ابني ..أرأيته ؟! زاحم الجارين بالمناكب، لم يعر أي اهتمام لصدى صوتها المبحوح من جرح الفجيعة .

يتلاشى صوتها الباكي وتذوي الأحرف . ليس في الميدان غير هاءات سكوت .. أرأيته .. هـ .. هـ .. هـ .. قد تلاشت بأعماق الضجيج ... وتلوت ساقاها المتعبتان في موج الزحام . أمسكت كف الفتى الجاري إلى باب القطار ... يا ولدي هو في قدّك، هو في عمرك، كان قبل الحلم، قبل النوم جنبي، أرأيته ...؟! سحب الكف بعنف وامتطى القطار وناداها : أجلي الرحلة يا أمي وعودي، فليالي البحث طوفان مخاطر، وتلاشت كلماته في صوت القطار .

ما بقي في الناس إلا ساكن في الركن منذ الأزل، هو مجنون تسمّر في أرض جنونه، وأبى أن يرحل عنها، إذ بها ذكرى جراحه، وعذاب العقل قبل أن يخفى ويشفى بغيابه .

سألته عن فتاها الفارس الحلو المدلل ... تمتم بحكمة العمر الشقي خشية أن تقرأ في عينيه سر السكن الدائم في أرض الذي غاب من غير إياب، خشية أن تنوي المبيت، حتى يأتي الذي نسيها أو تنوي الإقامة .

ليس في الدنيا سواها، وسوى المجنون أو ذاك الصبيّ الذاهل العينين، الباسط كفيه منذ ساعات المخاض .

صرخ القلب الشجيّ، هو أعمى لكنه يشبه ابني عندما كان صبياً، يا بني أسمعت خطواته وحفيف البدلة الزرقاء من صنع الذي خلف البحار، كان في صحتك، في بشرك عندما كان صبياً ... كان مثلك أسود الشعر وسيماً، أسمعته، أرأيته ؟

قلبها يبحث عن ابن الثلاثين ربيعاً، ناسياً كيس الثلاثين ربيعاً، في زمان ربما كان قلبه في الكيس الربيع .

خرجت تجري وذعر القلب يلوي الخطوات، أرأيتم ولداً في عمر الزهور، أملس الشعر بهي القد أسمر، فاتناً يلبس بدلة زرقاء زرقة البحر، وقميصاً تحتها أسود . ويجف الصوت والريق من الحلق العجوز، وتظل الخطوات العاثرات في صراع للطريق، أرأيتم ولدي الذي حلم الجفن بيوم يصبح فيه عريساً، .. حتى ملأت للعرس كيساً ... وتلاشى الحلم من حولي، وكان الخبر المشؤوم من حلم الشقي مثل عمري .

صور أخذت تطفو على سطح خيال الأم .. تتلاطم .. تتداخل، تتزاحم ... أخذت بعض مزاياها في خيال صورة الشيطان في ذاك المنام، وبقايا الصورة للابن المضيع، خالطت سمرة هذا سمرة ذاك، وتلاشت من أمام العين منها الزرقتان، وغدا الأسود لوناً واحداً، وغدا الطيفان شخصاً واحداً .. ومضت تلك العجوز تبحث عن ابنها حيناً، وعن الشيطان الآخر في محطات الوطن ... ■